

تفسير ابن كثير

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ
مِّنَ الْغَافِلِينَ

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره ، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله : (وسبح
بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) [ق : 39] وقد كان هذا قبل أن تفرض
الصلوات الخمس ليلة الإسراء ، وهذه الآية مكية . وقال هاهنا بالغدو - وهو أوائل النهار :
(والآصال) جمع أصيل ، كما أن الأيمان جمع يمين . وأما قوله : (تضرعا وخيفة) أي :
اذكر ربك في نفسك رهبة ورغبة ، وبالقول لا جهرا ؛ ولهذا قال : (ودون الجهر من القول
(وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء و [لا] جهرا بليغا ؛ ولهذا لما سألوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله : (وإذا
سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) [البقرة : 186] وفي
الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار ،
فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون

أصم ولا غائبا ; إن الذي تدعونه سميع قريب "وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى : (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) [الإسراء : 110] فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه ، وسبوا من أنزله ، و [سبوا] من جاء به ; فأمره الله تعالى ألا يجهر به ، لئلا ينال منه المشركون ، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم ، وليتخذ سبيلا بين الجهر والإسرار . وكذا قال في هذه الآية الكريمة : (ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله : أن المراد بهذه الآية : أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة . وهذا بعيد مناف للإنصات المأمور به ، ثم المراد بذلك في الصلاة ، كما تقدم ، أو الصلاة والخطبة ، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان ، سواء كان سرا أو جهرا ، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال ، لئلا يكونوا من الغافلين ; ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون